مسرح الطفل في الجزائر
هل هو وسيلة تربوية أم هو تسلية و ترفيه؟

أ.رابحي بن علية   أ. لخضر منصوري
جامعة وهران1

مقدمة

يتذكر الكثير من كبار السن أيام الطفولة في مجتمعنا حيث كانت تلك الجلسات الحميمية بين الأولاد والجدة أو الجد، تلك الحكايات الجميلة المتسلسلة التي يحرص الأطفال على متابعتها والاستمتاع بسماعها في كل ليلة، لم يكن هناك مسرح وممثلون، كانت فقط الجدة تجلس ويتحلق حولها الأطفال لتنطلق في سرد الحكاية، كانت قاعة العرض إحدى زوايا البيت أما المؤلف والممثلون والمخرج فكانوا شخصا واحدا هو الجدة، والأطفال هم الجمهور المتفرج، الأهم في كل هذا كانت المغامرات البطولية والأحداث المشوقة التي تنتهي دائما بحكمة أو عبرة، وخلال أيام الأسواق الأسبوعية كان الأطفال يرافقون أوليائهم ليس من أجل التسوق ولكن لمشاهدة "المداح"، رجل يرتدي الملابس التقليدية الأنيقة ويحمل دفا حيث يرافقه عازف على آلة "القصبة"، وبعدما يقوم باستدعاء الجمهور بواسطة وصلات غنائية افتتاحية ينطلق مباشرة في تقديم شخصيات القصة ثم يقوم بسرد الأحداث بطريقة تمثيلية، فمرة يكون هو الفارس البطل ومرة يكون هو الملك الظالم ومرة يكون هو الفتاة اليتيمة، في تلك الأجواء وبقليل من المسرح تربى أولئك الأطفال ليصبحوا رجالا عظماء، ثم جاءت الدراما السينمائية التي تلتها الدراما التلفزيونية، لتأخذ اهتمام الناس وتحوله عن تلك الأشكال الشعبية الجميلة رغم بساطتها إلى عوالم أخرى جديدة وساحرة، فاستولت شخصيات الكرتون على مكاسب الشخصيات الساردة الحية واحتلت مساحات تأثيرها في النفوس، وأخذت المسلسلات التلفزيونية مكان "الروايات المسرحية" حيث تفوق المشهد المسجل على المشهد الحي.

لكن بريق التكنولوجيا والتقدم التقني لم يستطع منافسة الأصالة والصدق الفني، لذلك ولد في نفوس الناس الحنين إلى تلك المشاهد الرائعة التي كانوا يتابعونها باهتمام واستمتاع على خشبة المسرح وفي الفضاءات المشابهة، فعاد الجمهور إلى تلك الأماكن الأليفة تدفعه حاجة ملحة لتلقي الأعمال المسرحية التي لا نظير لها ولا بديل عنها، عاد الكبار إلى مسارح طفولتهم أما الصغار فهذه مسارحهم القريبة من فطرتهم.

إن علاقة المسرح بالأطفال هي علاقة عجيبة، فلا أحد من الكبار يستطيع منافسة طفل يتابع عرضا مسرحيا هادفا، لا يستطيع منافسته في قوة الانتباه والتركيز وحسن المتابعة والتفاعل، ولا يستطيع أيضا منافسته في شدة الاستمتاع والاستفادة والتعلم، وقبل كل هذا لا يستطيع منافسته في حب المسرح، لهذا نسب المسرح للطفل فلا نقول: طفل المسرح بل نقول: مسرح الطفل، فمن يكون الطفل وما يكون المسرح؟

من هو الطفل؟

وفي المعجم الوسيط ورد المعنى المعجمي لكلمة الطفل على النحو الآتي: الطِّفل :طَفُلَ، طُفُولَة و طَفَالَة: نعم و رق وصار طفلا .

والطِّفل :المولود ما دام ناعما رخصا.

والولد حتى البلوغ، وهو للمفرد المذكر، (ج) أطفال.

أما القرآن الكريم فقد جاء فيه مفهوم كلمة الطفل ومعناها بأنه منذ ولادة الصبي إلى أن يحتلم، قال الله تعالى: ﴿ ونقر في الأَرحامِ ما نشاءُ إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ﴾(1)

هذا لغة، أما اصطلاحا فإن معظم علماء النفس أمثال :ستانلي هول، وبياجيه، وأريكسون وكولبرج، وعلماء مدرسة التحليل النفسي، وعلماء الاجتماع قد عرفوا مرحلة الطفولة بأنها "مرحلة حياتية فريدة، تتميز بأحداث هامة، فيها توضع أسس الشخصية المستقبلية للفرد البالغ، لها مطالبها الحياتية، والمهارات الخاصة التي ينبغي أن يكتسبها الطفل ...إنها وقت خاص للنماء والتطور والتغير، يحتاج فيها الطفل إلى الحماية والرعاية والتربية"(2).

أما القانون فيرى أن الطفل هو كل إنسان لم يبلغ سن الثامنة عشر، كما جاء في "اتفاقية حقوق الطفل"(3).

ما هو مسرح الطفل؟

مسرح الطفل هو نوع مسرحي معروف عبر العالم و موجه على وجه الخصوص لفئة الأطفال، غرضه تلبية حاجيات الطفل في مجالات الترفيه والمعرفة والتربية، وهو يختلف عن مسرح الكبار من حيث طبيعة المتلقي (الطفل)، وذلك ما يتطلب من المؤلف والمخرج والممثلين أخذ هذه الخاصية بعين الاعتبار، ولأنهم يخاطبون الأطفال فهذا يستلزم صناعة عمل مسرحي ملائم ومناسب لهذه الفئة.

في العرض المسرحي الموجه للأطفال قد يكون الممثلون أطفالا أو هواة أو ممثلين محترفين، لكن أولا وأخير لا يختلف مسرح الطفل عن مسرح الكبار من حيث المقومات، إلا أنه لا يمكن الاستهانة أو التساهل بهذا النوع المسرحي بحجة أنه موجه للأطفال فقط، والحقيقة أن إنجاز عرض مسرحي للأطفال قد يكون أكثر صعوبة من ذلك الموجه للكبار، و كما يقول ستانسلافسكي:" من الضروري أن نمثل للأطفال كما هو ضروري أن نمثل للكبار، ولكن تمثيلنا للأطفال ينبغي أن يكون أفضل"(4).

تفرض شخصية الطفل نفسها في حالة التلقي للمسرح، فيصبح إقناع جمهور الأطفال غاية في الصعوبة، وذلك يعود لعدة اعتبارات متعلقة بطبيعة التفكير و محدودية المستوى العلمي والثقافي وكذا رهافة الحس وقوة الملاحظة والانتباه لدى الأطفال، وعلى سبيل المثال لا يجب تقديم أشياء معقدة وأفكار تتطلب وقتا لاستيعابها أو سلوكات لا تناسب ذهنيات الأطفال، فهذا قد يضر أكثر مما ينفع، رغم أن الطفل يحب الأشياء العجيبة والساحرة والخارقة للعادة، لكن يمكن القول هنا أن مسرح الطفل هو إنجاز فني صعب بسبب خطورة وظيفته، التي هي بالأساس المساهمة في تشكيل شخصية الطفل وبناءها، وأي خطأ في إنجاز هذه الوظيفة قد يتسبب في نتائج غير محمودة فيما بعد.

النشأة والتطور

أكد أفلاطون على وجود دمى تم استخدامها في عروض مسرح العرائس، أو كما قال بيتر آرنوت pétre arnhot : "أن أفلاطون أكد على وجود عرائس القفاز، إذ كان ديتيوس يقدم عروضه على المسرح الكبير"(5)، ويتفق الكثير من الباحثين على أن حضارة الفراعنة في أرض مصر كانت هي منبت مسرح الطفل أو ما يسمى بمسرح الدمى، "وثبت أن أول مسرح للعرائس ولد على ضفاف النيل قبل أربعة آلاف عام، وقد أشار أرسطو وهوراس لوجود دمى تتحرك تلقائيا وأخرى قفازية و دمى خشبية تتحرك بشد الخيوط"(6).

لكن هذا يثير تساؤلا فنيا: هل مسرح الدمى والعرائس هو مسرح موجه للأطفال فقط؟ ، والمعروف أن عروض الدمى والعرائس تقدم في الأماكن الضيقة والمغلقة حيث يكون الجمهور قليل العدد أيضا، وقد يكون سبب اللجوء إلى مسرح الدمى والعرائس لعدم وجود ممثلين أو أماكن مخصصة للعرض، رغم ارتباط فكرة العرائس والدمى بشخصية الطفل، إلا أن مسرح الكبار كذلك يستعمل الشخصيات المقنعة التي ما هي أخيرا إلا دمى وعرائس كبيرة، مع مراعاة الفرق في مستوى النص ومدى بساطة الفكرة أو تعقيدها.

أما في أوربا فقد انتشر مسرح الطفل منذ القرن الثامن عشر حيث كان أول عرض مسرحي للأطفال ذلك الذي قدمته (مدام ستيفان يدي جبلينيس) سنة 1784 في باريس، كما يقول بعض المؤرخين للمسرح أن البداية كانت في القرن التاسع عشر من خلال أعمال الكاتب الدنماركي: هانز كريستيان أندرسن 1805-1875؛ حيث يعد مؤسسا لمسرح الطفل الحديث، من خلال أعماله مثل : مسرحية الحذاء الأحمر، الحورية الصغيرة، عقلة الإصبع، والبطة الدميمة، وهي مسرحيات مشهورة يعرفها و يحبها أغلب أطفال العالم.

بدأ النشاط المسرحي المخصص للأطفال في الجزائر "في ثلاثينيات القرن العشرين أثناء الاحتلال الفرنسي؛ إذ ألَّف محمد العيد آل خليفة مسرحية " بلال "عام 1938، كما كتب الأستاذ محمد الصالح رمضان مسرحية" الناشئة المهاجرة"، ومسرحية "الخنساء" ومسرحية "مغامرات كليب"، وألَّف كلٌّ من أحمد رضا حوحو وأحمد بن ذياب بعض المسرحيات ما بين الأربعينيات وبداية الخمسينيات؛ لينشط مسرح الأطفال في السبعينيات والثمانينيات أكثر"(7)، وبعد سنة 2007 تم إنجاز العشرات من العروض المسرحية الموجهة للأطفال بدعم مباشر من وزارة الثقافة للمسارح الجهوية والتعاونيات والجمعيات المسرحية، لكن عدم وجود برنامج مضبوط ومستمر للعرض بالقاعات بمختلف الولايات أدى إلى توقف هذه العروض.

الشخصيات في مسرح الطفل

غالبا ما يجذب الطفل في العروض المسرحية الشخصيات التي تكون أقرب إليه أي التي تشبهه وفي بعض الحالات يحب الشخصيات التي لا تشبهه تماما مثل تلك الخارقة للعادة والمألوف ذات الأشكال الغريبة، و هي مصنفة بشكل عام كما يلي:

الشخصيات الإنسانية: المرحة والتي تتحرك باستمرار، وليس هذا اختيارا إراديا محضا بل هو ما تفرضه نفسية الطفل وذائقته، وفي حالة وجود صراع بين الشخصيات فإن الطفل ينحاز للشخصيات الخيرة ضد الشخصيات الشريرة وهنا لا بد من وجود البطل، حيث يتحمس الطفل المتفرج لانتصاره في الأخير، وهو بهذا ينحاز فطريا للقيم الأخلاقية السامية مثل الحب والخير والجمال.

الشخصيات الحيوانية: وذلك لقربها من الشخصيات الإنسانية، فهي أيضا تتكلم وتتحرك ولها مشاعر ومواقف، إلا أنها تظهر بأشكال الحيوانات المختلفة، فمنها اللطيفة ومنها الشجاعة ومنها الشريرة والماكرة، وهذا المظهر الحيواني المختلف من حيث الشكل مع المظهر الإنساني يجعل العرض المسرحي أكثر متعة بما هو عليه من غرابة، وهو إثراء للجانب البصري.

الشخصيات النباتية: تشد انتباه الطفل شخصية الشجرة مثلا، وهي تتكلم وقد تشتكي من العطش والإهمال ومن خطر الحريق، فيتعاطف معها ويتعلم القواعد الأساسية لحماية الطبيعة وأهميتها بالنسبة للإنسان، فيجد المتعة البصرية والمادة العلمية التي يتلقاها بطريقة بسيطة وممتعة، وهو ما يحفز خيال الطفل وعاطفته الإيجابية فيتمنى أو يتخيل لو أن هذه الشجرة بإمكانها الحركة والتنقل للبحث عن الماء والهروب من الحريق.

الشخصيات الخيالية: وهي تلك الشخصيات " الغريبة التي لا وجود لها في العالم المحسوس حيث يقوم الكاتب بتمويهها إلى شخصيات محسوسة يمكن للطفل أن يراها ويسمعها من على خشبة المسرح كالعفاريت والشخصيات الفضائية"(8)، حيث ينجذب الطفل إلى هذه الشخصيات الغريبة والعجيبة والمجهولة من أجل اكتشافها وفهمها.

الخطاب في مسرح الطفل:

يعد المسرح من أنسب الأشكال الفنية للتحاور والتواصل مع الأطفال والتعبير عن عالمهم الخاص، وهناك تقاطعات مشتركة بين شخصية الطفل والمسرح، كأفعال التقليد وسلوك المحاكاة والطابع الاندماجي، حيث يميل الطفل إلى الاندماج مع أقرانه، وهو ما يشبه اندماج الممثل مع بقية الممثلين في الفرقة المسرحية، كما توجد نقاط مشتركة أخرى كالخيال والدهشة والتداعيات اللفظية، أو مثل ذلك الحوار الصادر من مواقف اللعب الانفرادي والجماعي، وهذه الاعتبارات الضرورية يجب أن تؤخذ بحذر من طرف الكتاب الذين يختارون الكتابة في مجال مسرح الطفل.

إن استهداف فئة الأطفال بنصوص مسرحية لا يستدعي التساهل والتهاون والتقليل من الأهمية، بل هو يتطلب الحذر الشديد والإحاطة التامة بالموضوع المتناول وكذا التمكن من تقنيات الخطاب المسرحي الموجه للمتفرج الصغير، ذلك لأن " الكتابة المسرحية للطفل تختلف بعض الاختلاف عن الكتابة للكبار، فالأطفال لهم عالمهم الخاص الذي يختلط فيه الواقع بالخيال، ولهم اهتماماتهم وقضاياهم الخاصة، كما أنهم في طور النمو والإدراك والتعلم مما يجعلهم أكثر قدرة على التلقي والتأثر"(9)، وعليه يجب على الكاتب في مسرح الطفل أن يلم بعلم النفس العام ثم علم النفس التربوي على وجه الخصوص، ذلك حتى لا يخرج الكاتب عن الإطار المحدد بالخصوصية والحساسية التي تتميز بها شخصية الطفل أو أن يرتكب أخطاء في بناء النص تتحول إلى عوائق في عملية التلقي، أو كما يقول الكاتب الإسباني ألفونسو ساستره: "...وببساطة إنه من غير المرغوب تقديم عمل مسرحي ميتافيزيقي للأطفال، مسرح الخرافات المجانية التي ينقصها المعنى، مسرح الخيال من أجل الخيال ومسرح اللعبة الحيواني وبالتالي مسرح بلا إسقاطات ما وراء اللعبة .. ومقابل ذلك سترفع شعارات مسرح الفنطازيا أو الخيال لأجل الواقعية"(10).

لذلك وجب الاهتمام بعملية التلقي في مسرح الطفل إذ لا فائدة ترجى بدونها، فالعرض المسرحي الذي لا يعرض ولا يتم تلقيه هو إنجاز ميت حتى ولو انتهى العمل عليه، فلا بد من اتصال طرفي العملية المسرحية اللذان هما المرسل(العرض المسرحي) والمرسل إليه (الطفل المتفرج)، أو كما يقول الأستاذ إسماعيل الطائي :"إن مرحلة الطفولة هي مرحلة بناء الأسس وخلق مكونات التلقي والاستجابة التي تنمي لدى الطفل الوعي والفهم والاستعداد والخبرة لفك رموز الشفرات المرسلة باتجاهه وبالتالي إعادة قراءة الرسالة (العرض) وإنتاج المعنى ، فعلى الطرف الباث أن يدرك الخصائص العمرية للأطفال، والخصائص الفنية والجمالية للخطاب المسرحي"(11)، وهذا هو بالتحديد دور المسرح بالنسبة للطفل، إنه يساهم في تأسيس آليات التلقي ثم الاستيعاب والفهم وينمي وظيفة التحليل.

اللغة في مسرح الطفل:

تعتبر إشكالية اللغة في المسرح الجزائري عموما ومنذ نشأته مسألة مطروحة لم تجد بعد الحل النهائي الذي يجمع عليه كل الممارسين والنقاد والمهتمين، رغم محاولات إيجاد حل توافقي وسطي تم تسميته بـــ"اللغة الثالثة"، وهي ليست لغة دارجة عامية تماما وليست لغة عربية فصيحة لكنها لغة تجمع بينهما بحيث تخدم الخطاب اللغوي في المسرح، وأهم ميزات هذه اللغة الثالثة أنها تتخلص من المؤثرات الصوتية واللسانية للهجات المحلية، وأنها تحقق التواصل اللغوي بشكل جيد، لكن رغم أن إشكالية اللغة في المسرح هي إشكالية فنية بحتة فإن بعض الذين ناقشوها، عن غير كفاءة أو بشكل مقصود، ربطوها بإشكاليات أخرى مثل الهوية والتعدد اللغوي، وعلى كل حال لا يمكن فصل لغة مسرح الطفل عن لغة التدريس في الجزائر، أي اللغة المستعملة بمستوياتها في المدرسة وفي الشارع وفي البيت.

إلا أن مسألة اللغة في المسرح الجزائري قد تكون أخذت أكثر مما تستحق، فالمسرح هو خطاب بصري بالدرجة الأولى، وخاصة في المسرح الحديث الذي يتجه نحو أولوية الحركة والتعبير الجسدي والمؤثرات الخاصة في الصوت والإضاءة على حساب الحوار اللغوي المنطوق.

الأداء التمثيلي في مسرح الطفل

يختلف الأداء التمثيلي في مسرح الطفل على الأداء في مسرح الكبار، و يعود ذلك لفئة الجمهور المستهدفة بالعرض المسرحي أي الفئة المتلقية، وهي فئة لها حاجاتها ومتطلباتها الخاصة والمختلفة، وأهم أوجه الاختلاف يتعلق بالحركة والأداء الصوتي حيث أن الممثل في مسرح الطفل يحاول محاكاة حركة الجسد لدى الأطفال وتقليد تصرفاتهم وطرق سلوكهم الحركي، كما يعدل نبرات صوته لتقارب نوعية الصوت عند الأطفال وكذا التدرب على الضحك والبكاء وما يرافقهما من حركات جسدية، وضبط ردود الأفعال المختلفة لتناسب تجاوب الأطفال مع جميع المواقف والوضعيات.

يهدف هذا الأداء التمثيلي الخاص إلى الاقتراب من النفسية العامة لجمهور الأطفال، وهذا ما يسهل عملية الاندماج بعد القبول والتجاوب، فحين يشعر الطفل المتفرج بانسجام العرض المسرحي ككل مع شخصيته حيث لا يكون هناك نشاز أو غرابة يتفاعل مباشرة ويستجيب بشكل إيجابي، و ينتج عن هذا تعلق الأطفال بالشخصيات والتمتع بالأحداث، أي حدوث الاستقبال الجيد لمحتوى العرض.

أما في العروض التي يمثل بها الأطفال مختلف الشخصيات أي (تمثيل الأطفال للأطفال) فلا تطرح إشكالية المحاكاة أو التقليد بل تكفي التمارين المكررة على إجادة الأداء والشروحات المنهجية والتوجيهات الفنية من طرف الأستاذ المشرف، حيث لن تكون هناك حاجة للاقتراب من شخصية الطفل.

في كل الحالات لا نعتبر ألعاب الأطفال وتمثيل النكت وتقليد الكبار نوعا مسرحيا، لأن المسرح هو مجموعة من العلوم والمعارف والفنون التي يجب إجادتها والتمكن فيها، وليس المسرح تصرفات ساذجة وتلقائية يقوم بها شخص ما، وعليه فإن الأطفال الممثلون لا ينظر إليهم أو معاملتهم على أنهم أطفال يلعبون بل هم في الحقيقة أطفال موهوبون ومشاريع لممثلين كبار، وهم بذلك يخضعون لتدريبات مسرحية خاصة، ويتم تحضيرهم حسب برنامج تحضير الممثل بواسطة تمارين الاسترخاء والتنفس والجلوس والقيام والمشي والجري(12)، هذه التمارين تجعل أجسام الأطفال الممثلين أكثر قابلية للأداء الحركي أثناء التمثيل وكذا النطق وإلقاء الحوار بشكل مريح.

أنواع مسرح الطفل:

ينقسم مسرح الطفل إلى عدة أنواع من حيث المضمون أو من حيث الشكل أو من حيث الشخصيات، فمن حيث المضمون نجد:

1- المسرحية التعليمية (العلمية): وهي التي تقدم فيها الشخصيات معلومات ومعارف بطريقة مسلية ليسهل استيعابها.
2- المسرحية التاريخية: وهي التي تمثل حادثة تاريخية معينة من التاريخ الوطني أو تقدم شخصية تاريخية معروفة.
3- المسرحية الأخلاقية: وهي التي تكون في صورة صراع بين القيم الإنسانية الخيرة وبين الأعمال الدنيئة والمنحطة، حيث تنتصر دائما القيم الخيرة.
4- المسرحية الاجتماعية: وهي التي تعالج مشكلة اجتماعية معينة فتبرزها أولا ثم تحاول إعطاء البدائل و الحلول المناسبة.

5- المسرحية الدينية: وهي التي تتناول أحد المواضيع الدينية فتعرفه ثم تدعمه بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية.

أما من حيث الشكل فهناك الأنواع التالية:

1- مسرحية الشخصيات البشرية: حيث تكون شخصياتها أطفالا أو رجالا أو نساء.

2- مسرحية الشخصيات الحيوانية: يرتدي الممثلون فيها أزياء تحاكي أشكال الحيوانات المختلفة.

3- مسرحية العرائس والدمى: أما العرائس المسرحية فهي شخصيات اصطناعية تمثل شخصيات بشرية أو حيوانية أو نباتية أو شخصيات خارقة وغريبة حيث يتم تحريكها بواسطة أعواد رقيقة بشكل خفي، أما الدمى فيتم تحريكها بواسطة الخيوط أو الأسلاك المرنة الدقيقة.

4- مسرحية خيال الظل: تتحرك الشخصيات المصنوعة من الورق المقوى بواسطة قضيب طويل يتحكم فيه اللاعب/المتكلم خلف شاشة كبيرة من الورق الأبيض أو القماش الحريري الأبيض حيث يكون في الخلفية مصدر إضاءة من أجل إنتاج الظل.

قد يكون هذا التنوع في مسرح الطفل ناتج عن تعدد الفئات العمرية للأطفال أي عمر الفئة المتلقية، فإذا كان الطفل هو الشخص منذ الولادة إلى غاية سن 18 فقد اختلف الباحثون والدارسون حول التقسيمات داخل هذه الفئة العمرية، أما التقسيم الأقرب للواقعية فهو المعبر عن وجود فئتين: الفئة الأولى: من 6 سنوات إلى 12سنة والفئة الثانية: من 12 سنة إلى 18سنة، أي من سن الالتحاق بالمدرسة الابتدائية إلى سن الدراسة بالمستوى النهائي في الثانوية، وعليه لا يستحب تقديم عرض في مسرح العرائس لأطفال في سن 17 سنة بالثانوية مثلا، كما لا ينصح بتقديم عرض تاريخي لأطفال في السنة الأولى ابتدائي.

أهمية مسرح الطفل

يعتبر المسرح مظهرا حضاريا يرتبط بتقدم الأمم ورقيها، وهو ليس أداة ترفيه أو تسلية فقط بل هو وسيلة تنوير وطريقة ناجعة لخدمة الفكر ونشر الوعي من أجل إحداث نهضة المجتمع في جميع المجالات، وبدون أدنى شك أن مسرح الطفل على وجه التخصيص له أهمية مضاعفة، لما يضطلع به من وظائف خطيرة تؤثر على تنشئة الطفل وتكوينه الفكري والنفسي وإبراز طاقاته الإبداعية والتعبيرية، ولذلك قال مارك توين mark tuin أن مسرح الطفل هو أعظم الاختراعات في القرن العشرين، كما وصفه بأنه " أقوى معلم للأخلاق، وخير دافع إلى السلوك الطيب، اهتدت إليه عبقرية الإنسان لأن دروسه لا تلقّن بالكتب بطريقة مرهقة أو في المترل بطريقة مملة، بل بالحركة المتطورة التي تبعث الحماسة"(13).

يتعلق الأمر بطبيعة الأداة المسرحية وتميزها، أداة تحضا بالقبول والترحاب لدى جمهور الأطفال، وحين يتم قبول الأداة أو الوسيلة فإن ذلك يعني قطع نصف الطريق باتجاه قلوب الأطفال وعقولهم، ويبقى تقديم المحتوى بشكل مناسب هو ما يتطلب العمل والجهد، فانطلاقا من نصوص مسرحية مدروسة جيدا لتلبية احتياجات الطفل التربوية والنفسية والمعرفية مرورا بالجانب التمثيلي الذي يتميز بتقنيات خاصة وصولا إلى الأسلوب الإخراجي، يمكن نقل خيال الطفل إلى عوالم جميلة يجد فيها محفزات ولطائف و مؤثرات ومعارف ومسليات وطرائف، وكل هذا يغذي عقل الطفل ويحرك فيه رغبات التفكير ودوافع الإبداع، باعتبار الطفل مشروع المجتمع لصناعة رجل المستقبل الذي تنتظره التحديات المختلفة التي تواجه الأمة وهو المكلف برفعها.

مسرح الطفل.. الوسيلة والأهداف

أي عمل أو إنجاز ما هو إلا وسيلة لتحقيق أهداف معينة ومعروفة سلفا، وأغلب الأهداف تكون عبارة عن حاجيات أو ضرورات يجب الوصول إليها أو اكتسابها أو إشباع، أما أهداف مسرح الأطفال فهي كثيرة وهي عبارة عن فوائد معنوية وذهنية وعلمية وسلوكية يتحصل عليها الطفل بواسطة تلقيه للعمل المسرحي، ومن هذه الأهداف نذكر(14):

1- تدريب الأطفال على الحوار اللغوي الصحيح و الشجاعة الأدبية.

2- تبسيط المواد العلمية من أجل استيعابها من خلال تقديمها في شكل جميل.

3– توفير أجواء المرح و البهجة واستغلالها في نقل الخبرات المعرفية.

4– تحسين أساليب التواصل والتعبير عن النفس وانشغالاتها.

يبقى المسرح بمثابة العالم الساحر الجميل الذي يجد فيه الطفل أجواء لا يجدها في الواقع، حيث ينطلق الخيال بحرية ليحلق عاليا في الآفاق بلا عوائق أو حواجز، و من ثمة يتعلم الطفل كيف يفرق بين الواقع والخيال من خلال المقابلة بين الحياة الواقعية والحياة المسرحية، حيث يشعر بوجوده ويستشعر العالم من حوله فيكون بذلك أكثر واقعية واستعدادا لرفع التحديات التي تنتظره في الحياة، إذ يساهم المسرح في تشكيل شخصية الطفل لتكون قوية وغنية ومتكيفة مع الحوادث والمستجدات.

يحتفظ مسرح الطفل بوظيفته كوسيلة تكميلية ضرورية لوظائف التربية والتعليم في البيت والمدرسة، أي استكمال مشروع تكوين الطفل أخلاقيا وعلميا واجتماعيا باستغلال كل الوسائل المتاحة انطلاقا من البيت إلى المدرسة ثم المسرح، هذا الأخير الذي يمنح الأطفال إمكانات التحليل والتقييم والحكم على الأشياء وكذا توسيع الخيال والقدرة على التركيز والتذكر، كل هذا بالإضافة إلى المتعة الجمالية والترفيه عن النفس مما يولد التفاؤل في الحياة وتقوية الدوافع للعمل والنشاط من أجل تحقيق الرقي الإنساني.

مسرح في المدرسة أم مدرسة في المسرح ؟

اختلطت المفاهيم في أذهان الناس بين مسرح الطفل، المسرح التربوي، المسرح التعليمي والمسرح المدرسي، قد تكون هناك اختلافات بسيطة بين هذه التصورات التي تشترك في وظيفة واحدة، ألا وهي تنمية قدرات الطفل الفكرية واللغوية والمساهمة في بناء شخصيته، لكن نسبة مسرح الطفل إلى المدرسة له مبرراته المكانية والزمانية، فميزة المسرح المدرسي أنه " يخدم المتعلمين بما يتحقق فيه من أهداف تشترك فيها المتعة والترفيه، وإثارة الدافعية إلى المعرفة، وتحريك الوجدان وتشغيل الحواس، وهو يستخدم التمثيل داخل المؤسسة التربوية من أجل الوصول إلى تحقيق الأهداف المسطرة، التي يقوم على تنفيذها المدرسون داخل فصول الدراسة، أو في المناسبات المختلفة"(15).

يمكن تقديم عروض مسرح الطفل في قاعات العرض المخصصة لمسرح الكبار بينما يكون الجمهور من الأطفال، لكن المسرح المدرسي يتم تقديم عروضه داخل المدرسة وفي الأقسام بالتحديد، وذلك لتمثيل درس معين مثل: دروس التربية المدنية أو تقديم مشهد تاريخي مشهور، أو التعريف ببعض القيم الأخلاقية والاجتماعية، ويكون هذا العرض مكملا للدروس التلقينية المعتادة، وبطبيعة الحال يقوم التلاميذ أنفسهم بالتمثيل ولعب أدوار الشخصيات المختلفة، وذلك بالإشراف المباشر والعام للأستاذ الذي كان قد أعد خطة العرض والحوار والتصور الإخراجي وكذا توزيع الأدوار على التلاميذ الممثلين، وبهذه الطريقة يمكن لجميع التلاميذ المشاركة بتكرار العرض، الذي يجب أن يكون قصيرا ومركزا ومبسطا، فتكون هناك ثلاثة فرص للعمل الجماعي حيث يندمج الجميع معا، فرصة التحضير حيث تكون هناك مناقشات

بين الأستاذ والتلاميذ حول اختيار الموضوع المناسب ثم كيفية تحويله إلى عرض مسرحي، والفرصة الثانية هي أثناء التدريب والتمرن على الأداء حيث تكون الملاحظات والاقتراحات متبادلة، أما الفرصة الثالثة فهي ما بعد العرض بواسطة التقييم والمناقشة حول نقاط القوة ونقاط الضعف، لكن أهم فرصة على الإطلاق هي التي تكون أثناء تقديم العرض أمام الزملاء المتفرجين والأستاذ.

إن إدخال المسرح في إطار المنظومة التربوية كوسيلة فعالة ومؤثرة هو إضافة نوعية تخدم التحصيل العلمي وتشارك في الجهد التربوي، وقد جاء في دليل التدريب في التقنيات المسرحية المعد من طرف منظمة اليونسكو: (..إن مشاهدة عرض تربوي معد بعناية يمكن أن يغير طريقة تفكير الفرد ولربما أيضا طريقة تصرفه، كما يوفر استخدام المسرح كأداة تربوية إبداعية فرصا لدحض الأساطير وتقديم نظرة متوازنة والتأثير على السلوك ويمكنه إن استخدم بفعالية أن يشكل طريقة ممتازة لتقديم المواضيع الحساسة التي عادة ما لا تناقش أمام الملأ..) (16)، وبالتالي تساهم العروض المسرحية التي تتناول مواضيع حساسة في نشر الوعي والتحسيس بالمخاطر والآفات المختلفة و ذلك من أجل المعرفة والوقاية.

واقع مسرح الطفل في الجزائر

أولا وقبل التطرق إلى ما هو عليه مسرح الطفل حاليا في الجزائر، وجب الحديث حول مرحلة ما بعد الاستقلال، لا بد أن نشير إلى أن الجزائر لم تضع أي إستراتيجية خاصة للنهوض بمسرح الطفل، والسبب قد يكون غياب المشتغلين بهذا النوع المسرحي من كتاب ورجال مسرح وقلة المخصصات المالية و ضعف الاهتمام، مما جعل الجزائر تتأخر في هذا المجال الفني التربوي، وحتى سنوات السبعينيات من القرن العشرين لم يكن هناك مسرح جزائري للطفل بالمعنى المتعارف عليه، فكانت المرحلة الجنينية لهذا الأدب من سنة "1976 إلى غاية 1980 حيث بدأ أدب الطفل في التشكل والظهور، ثم مرحلة ولادة مسرح الطفل بين سنتي 1981 و 1987" (17)، وانطلاقا من سنة 1996 حاولت وزارة الثقافة تشجيع المهتمين بمسرح الطفل بواسطة تنظيم مسابقات كل سنتين، لكن دون وضع خطة مدروسة للنهوض الحقيقي بهذا الفن، إلا أن وزارة الثقافة انطلقت في عملية تجديد المسارح الموجودة مع ظهور بعض الجمعيات الثقافية المهتمة بالمسرح محاولة إعادة الأمل ومساندة الجهود المتفرقة، وما يصف وضعية مسرح الطفل خلال هذه الفترة هو عدد العروض المنتجة من طرف المسرح الوطني بالعاصمة والتي لم يتجاوز "عددها 10 مسرحيات خلال خمسة وعشرين سنة أي ما بين سنتي 1986و 2010 " (18)، وقد تعود قلة الإنتاج هذه أيضا إلى قلة النصوص الجزائرية التي يمكن تحويلها إلى عروض مسرحية.

إن تنظيم الجزائر لتظاهرة "الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007" سمح بتوفير الإمكانات المالية التي تم تخصصيها لإنتاج عروض مسرحية كثيرة وكذا طباعة ونشر العشرات من الكتب ذات الصلة بموضوع المسرح وكذا ترميم العديد من المسارح والقاعات، ثم تنظيم تظاهرة " تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011" والتي كانت هي الأخرى مناسبة لدعم كل أنواع الإنتاج الثقافي والفني، وأخيرا احتضان الجزائر لتظاهرة "قسنطينة عاصمة الثقافة العربية 2015" حيث تزامنت مع افتتاح عدة مسارح جهوية جديدة وتأسيس العشرات من الجمعيات الثقافية المحلية والتعاونيات المهتمة بمسرح الطفل والمسرح عموما.

إن واقع مسرح الطفل في الجزائر هو امتداد لواقع المسرح الجزائري بشكل عام، إذ لا يمكن فصل الجزء عن الكل أو التحدث عن الاستثناء، "إن مظهر هذه الأزمة يتجلى في فقدان النص المسرحي في سوق الكتاب الأدبي بحيث لا نجد أي أثر لنصوص مسرحية تتداول بين القراء على شاكلة الفنون الأدبية الأخرى كالقصة والروية والشعر، كذلك لا نجد أي

أثر لمجلة متخصصة في المسرح بل حتى الكتابات المسرحية في المجلات والجرائد قليلة جدا"(19)، وقد حاول الكثيرون من الكتاب والنقاد في الصحافة الوطنية توصيف أزمة المسرح في الجزائر فكانت النتائج حسبهم مختلفة والآراء تكاد تكون متضاربة، فمنهم من أرجع أسباب الأزمة إلى غياب النص المسرحي وعزوف الكتاب على الاشتغال بهذا النوع الأدبي، ومنهم من لجأ إلى التبريرات الاجتماعية أي عدم اهتمام المجتمع بتلقي فن المسرح ويدلل على ذلك بظاهرة عزوف الجمهور عن العروض المسرحية المنتجة، و آخرون حملوا الدولة – وزارة الثقافة– كل المسؤولية عن تردي واقع المسرح في الجزائر لأنها لم تضع برنامج وطني مشجع لتمويل الإنتاج المسرحي وتوزيعه.

تنشط الجمعيات المسرحية بدون مرافقة في التأطير العلمي النظري لتحسين المستوى الفني، ورغم إنتاج كم لا بأس به من العروض اعتمادا على المساعدات المالية التي تمنحها السلطات المحلية لهذه الجمعيات إلا أن الارتجال في التسيير والسذاجة الفنية وعدم التخصص والتأهيل هي عوامل تدخل هذه العروض في إطار مسرح الهواة، أما التعاونيات المسرحية التي أنشأ أغلبها متخرجون من المعاهد الفنية فيمكن اعتبارها البديل الحقيقي لغياب الإنتاج من طرف المسارح الجهوية، إذ أن بعض العروض تميزت بالجودة الفنية نتيجة الاحترافية العالية والانضباط والمعرفة لدى القائمين عليها.

أما بالنسبة للمنظومة التربوية وعلاقتها بمسرح الطفل فإن هذا الموضوع لا يزال محل جدل ومناقشات غير رسمية بين رجال التربية ورجال المسرح، فالموجود حاليا في إطار البرنامج الدراسي المقرر من طرف وزارة التربية والتعليم هما مادتان منضويتان تحت تسمية التربية الفنية وهما الموسيقى والرسم، وهي وضعية مناسبة لاستحداث مادة فنية عامة هي (مادة المسرح المدرسي) حيث تدخل المادتان سابقتي الذكر ومواد فنية أخرى ضمنها، فيكون هناك تنوع و مجال للاختيار واهتمام أكبر.

لقد تم لحد الآن بناء وفتح حوالي عشرين مسرحا جهويا بمختلف الولايات بالإضافة إلى المسرح الوطني بالعاصمة، ومن خلال تقاليد الإنتاج المتبعة من طرف المسارح الجهوية القديمة والتي تعتمدها كذلك المسارح الجديدة يفرض على كل مسرح جهوي إنتاج ثلاثة عروض مسرحية سنويا على الأقل، وهذا يتيح فرصة للنهوض بمسرح الطفل إذا تم فرض إنتاج عرض مسرحي للأطفال من بين الثلاثة المبرمجة كل سنة، فيتكون بذلك تراكم إنتاجي يفوق 20 عرضا موجها للأطفال كل سنة بالإضافة إلى العروض المنتجة من طرف التعاونيات والجمعيات.

آفاق مسرح الطفل في الجزائر

لن تكون هناك آفاق واضحة لتطور مسرح الطفل في الجزائر إلا إذا تم حل جميع المشكلات التي تواجهه وتوفير الظروف المناسبة والشروط اللازمة والكافية للنهوض به، فالانتقال من حالة الأزمة إلى حالة الانفراج والتقدم يتطلب دراسة الواقع وتقييم الموجود ثم وضع برنامج وطني خاص للتطوير والمتابعة، أو كما أشار الدكتور مخلوف بوكروح في جوابه عن سؤال: ما الذي تقترحه من أجل أن يصل مسرح الطفل إلى واقع أفضل؟ (أدعو إلى تأسيس مسرح للطفل، إلى أن نعمل على الوصول بالممارسات الفردية والمبادرات الفردية إلى حالة تشكّل تجربة متجانسة، وذلك يبدأ أوّلا بإنشاء فرق مسرحية وخلق فضاءات خاصة بمسرح الطفل...) (20)، هذا يعني بلورة رؤية شاملة ومتكاملة تجمع بين جهود الأفراد المشتتة وبين دعم الدولة بالتكوين والتمويل ووضع البرامج، وكذا العمل على تأسيس هياكل خاصة بمسرح الطفل داخل المدارس وخارجها، ذلك أن يذهب المسرح إلى الطفل هو أنسب من أن يذهب الطفل إلى المسرح.

إن إدخال مادة المسرح أو (فن الدراما التربوي) – كما أسميه– في البرنامج الدراسي المقرر من طرف وزارة التربية هو إثراء وتدعيم لمواد هذا البرنامج، نظرا للأساليب الناجعة والمحببة التي هي من طبيعة العمل المسرحي الموجه للطفل(التلميذ)،

فيمكن تمرير أي محتوى علمي، تربوي- أخلاقي، توعوي- تحسيسي أو ترفيهي بطرق درامية ممتعة حيث يقبل الطفل على هذا المحتوى برغبة وحماسة، إلا أن هناك بعض الترتيبات والتحضيرات التي تعني الأساتذة والمربين، فحتى تكون لهذه الوسيلة فاعليتها الكاملة يجب أن يتعرف هؤلاء الأساتذة على فن المسرح عموما وعلى أهم تقنياته، ويمكن إضافة هذه المادة في برنامج تأهيل الأساتذة و الاستعانة كذلك بأساتذة متخصصين كأساتذة مكونين أو أساتذة مدرسين.

لقد سهلت تقنيات الإعلام والاتصال الحديثة والتقنيات الرقمية الكثير من الوظائف، و ذللت جل الصعوبات فوفرت بذلك الجهد والوقت واختزلت المسافات، كما يعتبر من أهم فوائد هذه التقنيات الحديثة تسجيل الأحداث المختلفة بوسائل السمعي- البصري والقدرة الهائلة على الحفظ والتخزين، لذلك سوف يكون من الضروري استغلال هذه الوسائل في مجال مسرح الطفل، وهذا يجنبنا إعادة العروض وبالتالي يتوفر لدينا الوقت والجهد، حيث يمكن تسجيل هذه العروض المسرحية مرة واحدة وبطريقة متقنة ثم طبعها على الأقراص المدمجة وتوزيعها على المدارس مثل المقررات والكتب في باقي المواد الدراسية.

يمكن أيضا أبرام اتفاقيات للعمل المشترك بين وزارتي الثقافة والتربية من أجل تنسيق الجهود ووضع برامج متخصصة وتنظيم دورات تكوينية لفائدة الأساتذة، ثم أن الإنتاج في مسرح الطفل من طرف المؤسسات والهيئات التابعة لوزارة الثقافة يجب أن يصل إلى الطفل في المدرسة أو عبر قاعات العرض، وهذا يتطلب وضع خطة للتوزيع المستمر بواسطة شبكة واسعة الانتشار، ومن الوسائط الإعلامية التي يمكنها أن تشارك في توزيع الإنتاج المسرحي الموجه للطفل مؤسسة التلفزيون الجزائري وكذا القنوات الفضائية الخاصة، وذلك باستحداث فقرات لبث هذه العروض في إطار برامج ثقافية وتربوية، مع إعطاء الاهتمام للمسرح الإذاعي الموجه للطفل.

خاتمة

لا يختلف اثنان حول أهمية مسرح الطفل في مسار بناء شخصية رجل المستقبل، لذلك نرى المجتمعات المتقدمة في سباق الحضارة تهتم بهذا الجنس الفني وتستعمله كوسيلة رئيسية في بناء الإنسان، وذلك رغم امتلاكها لأقوى المنظومات التربوية والتعليمية، إلا أن أهمية المسرح تكمن في خاصية التكامل التي تفي بغرض استكمال العملية التربوية، ثم استمرارية المسرح كعمل متواصل غير مرتبط بمواعيد محددة يجعله يستهدف أيضا الفئة المتسربة من المدرسة، كما أن مسرح الطفل قد يتناول مواضيع غير مبرمجة في المقررات الدراسية لكنها ذات أهمية تربوية أو تثقيفية، أما في الجزائر فلا يزال المسرح بعيدا عن المدرسة وهي بعيدة عنه رغم الإصلاحات المتكررة لتحسين الأداء والبرامج والنتائج في منظومتنا التربوية، وقد يكون وجود بعض المواد الفنية مثل الموسيقى والرسم جعل المكلفين بالإصلاح يزهدون في برمجة مادة (الدراما التربوية)، في حين يوجد نشاط مسرحي ضعيف كما ونوعا خارج المدرسة هدفه الوحيد تسلية الأطفال، حيث يرجع هذا الضعف إلى إقصاء المسرح من الأولويات التربوية وتهميش وظيفته التعليمية والتواصلية، لكن انعدام وجود بدائل للمسرح ووظائفه في المدرسة وفي المجتمع يحتم إعادة النظر ومراجعة ما هو موجود وبالتالي الوصول إلى اتفاق واقتناع الجميع بضرورة الاهتمام بمسرح الطفل.

الهوامش

[1] – سورة الحج، الآية 5

[2] – عليمة، نعون، مسرح الطفل في الجزائر، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب الجزائري الحديث، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الحاج لخضر، باتنة، 2011-2012

[3] – ألعاب من أجل حقوق الإنسان– رزمة التربية على حقوق الإنسان للأطفال، إكويتاس – المركز الدولي للتربية على حقوق الإنسان، المكتبة والأرشيف الوطني في كويبك،2008

[4] – علوش، عبد الرحمان، المسرح التعليمي في دراما الطفل– مسرحية هاري وفاري والألوان أنموذجا، مذكرة التخرج لنيل شهادة الماجستير، قسم الفنون الدرامية، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، 2013-2014

[5] – نفس المرجع السابق

[6] – نفس المرجع السابق

[7] – غزلان، هاشمي، مسرح الطفل: الإطار المرجعي والقيمي تمثلا وإسقاطا، مقالة منشورة على الرابط: http://www.alukah.net/literature_language/0/59623/#ixzz439fLyHoh، تاريخ النشر: 07-09-2013، تاريخ التصفح: 2016-08-05

[8] – ميادة، مجيد أمين الباجلان، خصائص تكوين المنظر في عروض مسرح الطفل، مجلة دراسات تربوية، العدد: 14، بغداد، آفريل 2011

[9] – أحمد، علي كنعان، أثر المسرح في تنمية شخصية الطفل، مجلة جامعة دمشق، المجلد 27 ، العدد الأول + الثاني،2011

[10] – ألفونسو، ساستره، ، مسرح الطفل، تر: إشراق، عبد العادل، الطبعة الثانية، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، وزارة الثقافة، العراق 2007

[11] – محمد، إسماعيل الطائي، التلقي في المسرح التربوي، مجلة الأكاديمي، العدد 52 لسنة 2009

[12] – أنظر: جان، دوت، تر: إبراهيم، حمادة، التعبير الجسدي للممثل، وحدة الإصدارات –مسرح 6، مركز اللغات والترجمة، أكاديمية الفنون، مطابع المجلس الأعلى للآثار، القاهرة، مصر، 1996

[13] – أحمد، علي كنعان، أثر المسرح في تنمية شخصية الطفل، مرجع سابق

[14] – أنظر: عرجون، الباتول، مسرح الطفل وفتنة تماهي "الأنا" الطفولي مع الدور البطولي، مقالة منشورة و موزعة على شبكة الإنترنت في شكل ملف pdf

[15] – عبد العزيز، بوشلالق، المسرح في المنظومة التربوية الجزائرية– دراسة تحليلية لمناهج اللغة العربية، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة المسيلة، 2008-2009

[16] – دليل التدريب في التقنيات المسرحية– أدوات لتربية الشباب من خلال النظراء، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)، صندوق الأمم المتحدة للسكان وشبكة تربية النظراء الشباب (Y-PEER) ، 2005

[17] – أماني، التجاني، المسرحية المدرسية في الأدب الجزائري–المضامين وأساليب التعبير، مذكرة التخرج لنيل شهادة الماستر في الأدب المسرحي ونقده، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2013-2014

[18] – نفس المرجع السابق

[19] – امحمد، عقيدي، واقع وآفاق المسرح في الجزائر، مجلة الحوار المتمدن، عدد 3694 المنشور بتاريخ: 10-04-2012، على الرابط: http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=302827، تاريخ التصفح: 03-08-2016

[20] – مخلوف، بوكروح، مسرح الطفل في الجزائر لم يصل إلى مرحلة التأسيس، مقابلة صحفية مع جريدة الجمهورية، منشورة على الموقع: http://www.djazairess.com/eldjoumhouria/8604، بتاريخ: 24-03-2011، تاريخ التصفح: 10-08-2016